Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (5) , Issue (15) : 30 Dec 2021
P: 50 - 64
ISSN: 2522-3380
مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (5) ، العدد (15) : 30 ديسمبر 2021م
ص: 50 - 64

Study of Rime in the Prose of Abi Al-Fadl Al-Mikali

Aisha Mohamad Moustafa
Faculty of Letters and Human Sciences || Damascus University || Syria

Abstract: This research deals with the study of Rime in the prose of Abi Al-Fadl Al-Mikali, a study that dealt with this phenomenon in the fourth century AH. The Rime has an important impact on the literary text reaching its goal through mastering the selection of words and letters, considering their characteristics and sounds, so the recipient is delighted when he hears and the reader when he reads, and together it draws attention to the Rime in Abi Al-Fadl Al-Mikaly's prose, that- this artistic color often leads On other inventive arts such as alliteration and iteration

One of the most important recommendations that writers should not lose sight of in their writing is to stay away from the necessity of Riming in their artistic texts unless it is necessary, lest the literary work be spoiled by excessive embellishment and sophistication, so it loses its luster, and distorts its meaning.

The recipient responds to the category work through its harmonious music and Rims that correspond to the requirements of the soul, and it is not possible in any way to isolate the rhythm of the Rime from the meaning and context, and the creator's emotion.

The ancient and contemporary critics were interested in this art and its impact on the artwork! Its place in prose is the place of weight in poetry, this art that entered the arts of literature, and gave it a sense of goodness, and a lot of interest in this art and commitment to it in the book of this century, except for what is rarely important.

Keywords: Rime - Abu Al-Fadl Al-Mikali - fourth century AH.

دراسة السجع في نثر أبي الفضل الميكالي (436هـ)

عائشة محمَّد المصطفى
كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة || جامعة دمشق || سورية

المستخلص: تناول هذا البحث دراسة السَّجع في نثر أبي الفضل الميكالي، دراسةً تناولت هذه الظاهرة في القرن الرابع الهجري، وقد سعى البحث لإبراز أهمية السَّجع ووظيفته في الكلام المنثور، متبعًا المنهج الوصفي التَّحليلي، ومن النتائج التي توصَّل لها البحث: للسَّجع أثر مهم في وصول النَّص الأدبي لغايته من خلال التَّفنن في انتقاء الألفاظ والحروف، باعتبار خصائصها وأصواتها فيطرب المتلقي لما يسمع والقارئ لما يقرأ، وممّا يثير الانتباه بدراستنا للسَّجع في نثر أبي الفضل الميكالي، أنَّ هذا اللَّون الفني يقوم في كثير من الأحيان على فنون بديعيَّة أخرى كالجناس والتَّكرار.

ومن أهم التَّوصيات التي يجب أن لا تغيب عن الأدباء في كتابتهم، الابتعاد عن لزوم السَّجع في نصوصهم الفنيَّة إلا إذا احتاج الأمر لذلك، لئلا يفسد العمل الأدبي بكثرة التَّنميق والتَّكلف فيفقد رونقه، ويتشوَّه معناه.

فالمتلقي يتجاوب مع العمل الفني من خلال موسيقاه وإيقاعاته المنسجمة التي تتوافق مع متطلبات النَّفس، ولا يمكن بحال من الأحوال عزل إيقاع السجع عن المعنى والسِّياق، وعاطفة المبدع.

ولقد اهتمَّ النُّقاد القدماء والمعاصرون بهذا الفن وماله من أثر في العمل الفني، فمقامه من النّثر مقام الوزن من الشِّعر، هذا الفن الذي دخل فنون الأدب، فأضفى عليه حسنًا إلى حسن، وكثُر الاهتمام بهذا الفن والالتزام به عند كتَّاب هذا القرن، إلا ما ندر منهم.

الكلمات المفتاحيَّة: السَّجع - أبو الفضل الميكالي - القرن الرَّابع الهجري.

مقدّمة: Introduction

إنَّ مشكلة البحث (Problem Startement) التي واجهت الباحث وهي قلَّة تناول دراسة السَّجع بشكل مستقل عن غيره من الفنون البديعيَّة، ويمثِّل في أغلب الأحيان جزءًا من الدراسة، من هذه الدِّراسات:

1- الباحث بدر الجابري، يقدِّم دراسة علميَّة حول السَّجع العربي بين النَّسقيَّة النَّوعيَّة والنَّظرة البلاغيَّة، مسقط العمانيَّة.

2- السَّجع في العصر الجاهلي، مالك محمَّد جمال بني عطا، إشراف، د. أنور أبو سويلم، جامعة مؤتة، 2011م.

3- فن المقامات بين الهمذاني والحريري، دراسة فنيَّة موازنة، إعداد: دقيش هدى، إشراف: د. سعودي يمنيَّة 1434_1435هـ.

ومن أسئلة البحث (Research Questions) التي تطرح نفسها:

1- هل ظهر السَّجع فجأة في القرن الرَّابع؟

2- هل من الضرورة لزوم السَّجع في أغلب الكتابات الفنيَّة؟

3- متى يحقِّق السَّجع دوره الفنيّ في السَّامع والقارئ؟

أمَّا عن أهداف البحث (Researchh Objectives) فهي:

1- إلقاء الضوء على أطوار السَّجع وصولًا إلى القرن الرَّابع.

2- إظهار أثر السَّجع ومكانته المتميِّزة بين الفنون البديعيَّة الأخرى.

3- تبيان الاعتدال في لزوم السَّجع في الكتابات الفنيَّة.

وتتجلَّى أهميَّة البحث (Research Importance) في:

1- تقديم دراسة عن هذا اللَّون الفني المميَّز.

2- تناول البحث نماذج من رسائل أبي الفضل الميكالي وبروز السَّجع فيها.

3- أثر السَّجع في المتلقي، وماله من إيقاع يشدُّ الانتباه.

وكان منهج البحث(Research Methodology) :

اتَّبع البحث المنهج الوصفي التَّحليلي، وكذلك ظهر فيه المنهج التَّاريخي بواسطة دراسة أطوار السَّجع، من الجاهليَّة حتَّى القرن الرَّابع.

الإطار النَّظري والدِّراسات السَّابقة (Review Literature):

تمَّت الإشارة إلى الدِّراسات السَّابقة في بداية المقدِّمة، وعند الحديث عن إيقاع السَّجع لابدَّ من الإشارة إلى معنى هذه الكلمة:

فقد عرَّفه ابن منظور بأنَّه" الكلام المقفَّى، والجمع أسجاع وأساجيع، وكلام مسجع، وسجع يسجع سجعًا وسجع تسجيعًا تكلَّم بكلام له فواصل كفواصل الشِّعر، في غير وزن وسمي سجعًا لاشتباه أواخره وتناسب فواصله" (1).

كما يعرِّفه يوسف أبو العدوس بأنَّه" اتفاق فواصل الكلام في الحرف الأخير دون تقيُّد بالوزن" (2).

وقد تناول النُّقاد هذا الفن البديعي وأفاضوا في الحديث عنه وعن أطواره، فهو ليس وليد القرن الرَّابع الهجري، بل لازم الأدب العربي منذ الجاهلية مرورًا بالعصر الإسلامي والأموي وتبلور أكثر ما يكون في العصر العبَّاسي، في القرن الرّابع الهجري على وجه الخصوص.

ولنذكر أولًا أنَّ السَّجع من مميزات البلاغة الفطريّة، فهو في أكثر اللُّغات يجري باطراد في الحكم والأمثال، ويمكن الحكم بأنَّ أمثال العامّة تقع غالبًا مسجوعة وقد يجني السَّجع على المعنى أحيانًا في تعابير الفطريّين من أهل البادية والرِّيف، وفي ذلك دلالة على أنَّ المحسنات اللَّفظيَّة ممَّا يقصده العوام وليست ممَّا ينفرد به الخواص (3).

ففي العصر الجاهلي حيث الاعتماد على المشافهة والرِّواية يكون استخدام السَّجع ظاهرًا في أغلب الخطب، لأنَّ السَّجع كان فنًا من فنون القول والدُّعاء عند الجاهليَّة، ولا بدَّ من الإشارة إلى مسألة اختلف فيها الكثير من العلماء حول تسمية الفواصل القرآنيَّة فسماها بعضهم سجعًا، وسمَّاها آخرون فواصل أو رؤوس الآي (4)، إذ بدأت الإشارة إلى الفواصل في مباحث اللُّغة والبلاغة عند الفرَّاء في معاني القرآن، ولكنَّه سمَّاها رؤوس الآي... (5).

واستعمل ابن خالويه، مصطلحي "رؤوس الآي والفواصل" (6).

وقد ثار الخلاف من بعد حول المصطلح حين عرض الرُّماني للمسألة فنفى وجود السَّجع في القرآن، وفضَّل استعمال الفواصل إذ قال: "الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حُسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب وذلك أنَّ الفواصل تابعة للمعاني، أمَّا الأسجاع فتابعة لها، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدَّلالة" (7).

ونجد الأمر يختلف عند العسكري الذي عنون الباب الثَّامن من كتابه الصِّناعتين بقوله: "في ذكر السَّجع والازدواج" "ثمَّ ذكر فيه الفواصل" مستشهدًا ببعض الآيات القرآنيَّة، وهو بما ذكر لم ينكر السَّجع في القرآن، واستعمل المصطلحين معًا، ومعهما مصطلح الازدواج، فكأنَّه لا يفرِّق بين الثلاثة في واقع الأمر، وممَّا يدل على ذلك أنَّه استعمل مصطلح الفواصل مكان السَّجع في غير القرآن الكريم، قال: "وينبغي أن تكون الفواصل على زنة واحدة، وإن لم يمكن أن تكون على حرف واحد فيقع التَّعادل والتَّوازن كقول بعضهم: "اصبر على حَرِّ اللِّقاء، ومضض النِّزال، وشدَّة المصاع، ومداومة المراس... فلو قال: على حرِّ الحرب ومضض المنازلة لبطل رونق التَّوازن وذهب حُسن التَّعادل" (8).

---

(1) لسان العرب: ابن منظور، مادة سجع، 1997م.

(2) مدخل إلى البلاغة العربيَّة (علم المعاني، علم البيان، علم البديع) : د. محمَّد غرَّة، د. منيرة محمَّد فاعور، 2007م، ص، 289.

(3) ينظر النَّثر الفني في القرن الرَّابع الهجري: زكي مبارك، 2012م، ص، 65.

(4) فواصل الآيات القرآنيَّة دراسة بلاغيَّة دلاليَّة: د. السَّيد خضر، ط1، 2000م، ص، 61.

(5) معاني القرآن: لأبي زكريا يحيى بن زياد الفرَّاء، 1955م، 224/3.

(6) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، ص، 103.

(7) النُّكت في إعجاز القرآن: لأبي الحسن علي بن عيسى الرُّماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، 1991م، ص، 97.

(8) كتاب الصِّناعتين: أبو هلال العسكري، 1993م، ص، 289.

ولكنَّ المسألة ما لبثت أن دخلت ميدان الكلام مع ما دخل من مسائل الدِّين، وكان ذلك على يد القاضي أبي بكر الباقلاني الأشعري، حيث عقد فصلًا في كتابه (إعجاز القرآن) سمَّاه: "فصل في نفي السَّجع من القرآن" قال في أوَّله: "ذهب أصحابنا كلّهم إلى نفي السَّجع من القرآن وذكره أبو الحسن الأشعري في غير موضع من كتبه، وذهب كثير ممَّن يخالفهم إلى إثبات السَّجع في القرآن.." [(9)]، ومن العلماء الذين قالوا بالسَّجع في القرآن الكريم استشهدوا ببعض الآيات القرآنيَّة كقوله تعالى:﴿وكم أرسلنا من نبيٍّ في الأولين، وما يأتيهم من نبيٍّ إلا كانوا به يستهزئون، فأهلكنا أشدّ منهم بطشًا ومضى مثل الأولين﴾ {الزُّخرف}(ولقد اعتمد الباحث رواية حفص عن عاصم في كلِّ ما ذُكر من شواهد قرآنيَّة).

وقوله تعالى:﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10)أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (15) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ(16) ﴾ {الواقعة: 10- 16}.

هي مسألة كثُر خلاف العلماء فيها، ولا يتسع المقام للخوض فيها، ولكن يرى الباحث في إطلاق تسمية السَّجع على القول المنثور ممَّا جاء في الخطب، وغيرها من فنون السَّرد، واقتصاره على ما يكتبه الأديب أو يقوله مشافهةً، أفضل من أن يشمل الفواصل القرآنيَّة، وذلك لقدسيَّة القرآن، وعظيم بيانه، وإعجازه، إذ تكون الألفاظ تابعة للمعاني، غير أنَّنا في كثير من الأحيان نجد المعاني تابعة للألفاظ، ليتمكن الأديب من إظهار قدرته البيانيَّة عند استعماله لفنِّ السَّجع.

وكذلك نلحظ السَّجع في الأحاديث النَّبويَّة قال صلَّى الله عليه وسلَّم: " أفشوا السَّلام، وأطعموا الطّعام، وصلوا الأرحام، وصلُّوا باللَّيل والنَّاس نيام، تدخلوا الجنَّة بسلام" [(10)].

والسَّجع لا يطّرد في الحديث؛ فهو حلية تُقصد ولكنَّها لا تلتزم، لما في التزامها في قهر المعاني متابعة الألفاظ.

أضف إلى ذلك دخول هذا اللّون البديعي في أغلب خطب العصر الإسلامي كما في خطبة علي رضي الله عنه في بيان قدرة الكائنات بجوار قدرته تعالى:"...بلا قدرةٍ منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها، ولو قدرت على الامتناع دام بقاؤها" [(11)].

وكذلك حال الخطباء والمتكلمين في العصر الأموي، إذ تكاد خطبهم لا تخلو من السَّجع، ويكثر أيضًا في خطب زعماء الوافدين على الخلفاء، وهذا ما نلحظه في قول عبد الملك بن مروان وقد دخل عليه العجاج [(12)] : " يا عجاج، بلغني أنَّك لا تقدر على الهجاء، فقال يا أمير المؤمنين:" من قدر على تشييد الأبنية، أمكنه إخراب الأخبية، قال: فما يمنعك من ذلك؟ قال: إنَّ لنا عزًا يمنعنا من أن نُظلم؛ وإنَّ لنا حلمًا يمنعنا من أن نَظلِم؛ فعلامَ الهجاء؟ فقال: لَكلماتك أشعر من شعرك، فأنَّى لك عزّ يمنعك من أن تُظلَم؟ قال: الأدب البارع، والفهم النَّاصع، قال: فما الحلم الذي يمنعك من أن تَظلِم؟ فقال: الأدب المستطرف، والطَّبع التَّالد" [(13)].

وأصرح من كلّ ما سلف في إيثار السَّجع ما قاله عبد الصَّمد بن الفضل بن عيسى الرَّقاشي وقد سُئل: " لِمَ تُؤثر السَّجع على المنثور، وتُلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟".

---

(9) إعجاز القرآن: للقاضي أبي بكر الباقلاني، 1978م، 106/1، 107.

(10) مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن هلال بن أسد الشيباني، 2001م، ج201/39، ترقيم الحديث، 23784.

(11) نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: 13/ 55.

(12) العجاج: هو عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السَّعدي التميمي، أبو الشّعثاء، راجز مجيد من الشّعراء، ولد في الجاهليَّة، وقال الشِّعر فيها ثمَّ أسلم، وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك، ينظر: الأعلام: للزركلي، ج86/4.

(13) الأمالي: للقالي، 1906م، 49/2.

فأجاب: " إنَّ كلامي لو كنتُ لا آمل منه إلا سماع الشَّاهد لقلَّ خلافي عليك، ولكنّي أريد الغائب والحاضر، والرَّاهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والأذن لسماعه أنشط وهو أحقُّ بالتَّقييد وبقلَّة التَّفلت، وما تكلَّمت به العرب من جيّد المنثور أكثر ممَّا تكلَّمت به من جيّد الموزون فلم يُحفظ من المنثور عِشره، ولا ضاع من الموزون عِشره" [14].

وظهر أيضًا في العصر العبَّاسي خلال القرن الثَّاني والثَّالث، في الكتابة والتَّأليف، إذ نجد ذلك في كتابات ابن المعتز كقوله: " لا يزال الإخوان يسافرون في المودّة، حتَّى يبلغوا المشقّة، فإذا بلغوا ألقوا عصا التّسيار، واطمأنَّت بهم الدَّار..." [15].

وفي هذا ما يشير إلى أنَّ الفنون الأدبيَّة لا تُخلق مرَّة واحدة، أو لا تُبعث مرَّة واحدة؛ فالسَّجع لم ينشأ فجأة في القرن الرَّابع الهجري وإن التزمه الكثير من كُتَّاب هذا العصر ومن أبرزهم بديع الزّمان الهمذاني والخوارزمي، وأبي الفضل الميكالي.

ونعود الآن لنتناول درس آراء علماء البيان الذين تكلَّموا في السَّجع، ففي كلامهم تحديد لأهميَّة السَّجع في البلاغة العربيَّة، ولنبدأ بالجاحظ، وهو كاتب لا يسجع إلا قليلًا، ولكنَّه يرى السَّجع من خصائص لغة العرب، وانظر قوله في الرَّد على الشّعوبيَّة: " ونحن_ أبقاك الله_ إذا ادّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم على أنَّ ذلك لهم شاهد صدق من الدِّيباجة الكريمة والرَّونق العجيب، والسَّبك والنَّحت الذي لا يستطيع أشعر النَّاس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والنَّبذ القليل" [16].

وقد دافع عن الأسجاع وناقش من كرهوها، فحدَّث أنَّه قيل لعبد الصَّمد بن الفضل: فقد قيل للذّي قال: " يا رسول الله أرأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل، أليس مثل ذلك يُطل؟" فقال رسول الله: " أسجعًا كسجع الكهان؟" فقال عبد الصَّمد: لو أنَّ هذا المتكلَّم لم يُرد إلا إقامة الوزن لما كان عليه يأس، ولكنَّه عسى أن يكون أراد إبطالًا لحق فتشادق في كلامه [17].

ومن الباحثين الذين فصّلوا في مسألة السَّجع الخفاجي، حدَّثنا: " أنَّ السَّجع الواقع موقعه، كثير لمن طلبه" [18]. وكان الخفاجي يميل إلى إيثار السَّجع حين يوجبه المعنى والغرض، فإنَّه يكره أن تجعل الرّسالة كلَّها مسجوعة على حرف واحد" لأنَّ في ذلك تعرّضًا للتكرار، وميلًا إلى التَّكلف" [19].

وممَّن دافعوا عن السَّجع أبو هلال العسكري، فقد عرض للشَّاهد الذي عرض له الرقاشي فيما نُقِل عن الجاحظ، ووقف عند قوله عليه السَّلام: " أسجعًا كسجع الكهان؟" وعلَّل الاستنكار بما عرف في سجع الكهان من التَّكلّف، ثمَّ قال: " ولو كرهه عليه الصَّلاة والسَّلام لكونه سجعًا لقال: أسجعًا؟ ثمَّ سكت، وكيف يذمه ويكرهه وإذا سلم من التَّكلّف وبرئ من التّعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه؟" [20].

ومن أظهر من اهتمّوا بالكلام عن السَّجع ابن الأثير، وهو يمتاز عمن سبقوه في الدّفاع عن السَّجع بأنَّه عاش في عصرٍ كان أهله جميعًا يسجعون، وهو يتهم خصوم السَّجع بالعجز عن أن يأتوا به" وإلا فلو كان مذمومًا لما ورد في

---

(14) البيان والتّبيين: الجاحظ، 2006م، 158/1، وعبد الصَّمد هذا من رجال القرن الثَّاني.

(15) معجم البلدان: ياقوت الحموي، 1995م، 242/2.

(16) البيان والتَّبيين: الجاحظ، 3/ 13.

(17) السَّابق: 1/ 158.

(18) سر الفصاحة: الخفاجي، 1982م، ص، 177.

(19) السابق: ص، 179.

(20) كتاب الصّناعتين: أبو هلال العسكري، 1993، ص، 200.

القرآن الكريم، فإنَّه قد أتى منه بالكثير حتَّى إنَّه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرَّحمن، وسورة القمر وغيرها، وبالجملة فلم تخلُ منه سورة من السّور" [21].

وقد عرَّفه ابن الأثير بقوله: " تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد" [22]. وعلى درجه سار الخطيب القزويني، فذكر أنَّه" تواطؤ الفاصلتين من النَّثر على حرف واحد" [23].

وقد وصفه أحمد شوقي بأنَّه شعر العربيَّة الثَّاني وأوضح ذلك بأنَّه" قوافٍ مرنة ريّضة، خُصَّت بها الفصحى، يستريح إليها الشَّاعر المطبوع، ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله، ويسلو بها أحيانًا عمَّا فاته من القدرة على صياغة الشِّعر" [24].

وقدامة بن جعفر_ من كتَّاب القرن الرَّابع_ يرى السَّجع من أوصاف البلاغة؛ على شرط أن يكون في موضعه، وعند سماح القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه" فإنَّ السَّجع في الكلام كمثل القافية في الشّعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها، والسَّجع مستغنى عنه، فأمَّا أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله، وخطبه ومناقلاته، فذلك جهلٌ من فاعله، وعيٌّ من قائله" [25].

والذي لاشكَّ فيه أنَّنا حين نتأمَّل السَّجع ونرهف السَّمع إلى إيقاعاته نراها ممَّا تطرب لها النَّفس بالفطرة والطَّبع، وتتجاوب معها العواطف والأحاسيس يستوي في ذلك الخاصَّة والعامَّة، فتساوق الجمل وتوازن الفقرات له ما للوزن في الشعر من جمال الوقع وحسن التَّأثير" فجمال العبارة وجلال الأسلوب من الصفات المشتركة في النَّاس، تتفق في الوجود والمظهر، وتختلف في الطَّاقة والدّرجة، فالعامَّة يستعملون الوزن والسَّجع والجناس، حتَّى جاشت في صدورهم عاطفة أو جرت على ألسنتهم حكمة، فمواويلهم وأناشيدهم وأغانيهم موزونة أو موقَّعة، وأمثالهم وحكمهم وضوابطهم مزدوجة أو مسجوعة، وكلَّما سمت الطَّبقة، واتَّسعت الثقافة، وصدق الشُّعور، وصفا الذَّوق، وأُرهفت الآذان سما الأسلوب من الجميل إلى الأجمل، ومن الجليل إلى الأجل، حتَّى يبلغ الأوج عند كلام الله" [26].

ويُضاف إلى هذا الأثر الفني الذي يولّده السَّجع في الكلام المنثور أثر آخر يمكن عدَّه نتيجة للسابق، ذلك أنَّ تناسق الإيقاع الذي يتجلَّى في السَّجع بأشكاله المختلفة يُعدُّ عاملًا فعالًا في حفظ نصوص الأدب النَّثري وسهولة تداولها، وقد كان هذا سببًا في بقاء كثير ممَّا نقرؤه الآن من الخطب والمساجلات، والأقوال السَّائرة التي جرت على ألسنة حكماء العرب وأعلام بيانهم في العصر الجاهلي، وظلَّ الرُّواة يتناقلونها شفاهًا حتَّى عصر الكتابة والتَّدوين [27].

ولابدَّ من الإشارة بأنَّ للسَّجع أنواعًا عدَّة منها:

1- السَّجع المرصَّع:

وهو ما اتفقت فيه كلُ ألفاظ القرينتين أو أكثرها في الوزن والقافية، نحو قوله تعالى:﴿إنَّ الأبرار لفي نعيم، وإنَّ الفجَّار لفي جحيم﴾ {الانفطار 13، 14}.

(21) المثل السّائر: ابن الأثير، 1999م، ص، 114،

(22) المثل السَّائر، ابن الأثير، ص، 308.

(23) الإيضاح: للقزويني، 1949م، ص، 222.

(24) أسواق الذَّهب: أحمد شوقي، 1932م، ص، 109.

(25) نقد النَّثر: قدامة بن جعفر، 1980، ص، 82.

(26) دفاع عن البلاغة: أحمد حسن الزَّيات، ص، 114، 115.

(27) يُنظر أساليب البديع في البلاغة العربيَّة رؤية معاصرة: شفيع السّيد، 2006م، ص، 89.

2- السَّجع المتوازي:

وهو ما اتَّفقت فيه الفاصلتان (الكلمتان الأخيرتان من كلّ جملة) في الوزن والقافية، مع اختلاف ما عداهما، نحو قوله تعالى: ﴿والنَّجم إذا هوى، ما ضلَّ صاحبكم وما غوى﴾ {النجم، 1، 2}.

3- المُطرَّف:

وهو ما اختلفت فيه الفاصلتان في الوزن واتَّفقتا في التَّقفية، وسُمي مطرَّفًا؛ لأنَّ التَّوافق بين الفاصلتين واقع في الطَّرف، وهو الحرف الأخير، ومثاله قوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارًا، وقد خلقكم أطوارًا﴾ {نوح، 13، 14}.

كما ويُقسم السَّجع تبعًا للطول والقصر إلى:

1- السَّجع القصير:

وهو ما كانت فيه كل واحدة من السَّجعتين مؤلَّفة من ألفاظ قليلة، وكلَّما كان عدد الألفاظ قليلًا، كان السَّجع أحسن، كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها المدّثر، قم فأنذر، وربَّك فكبّر، وثيابك فطهِّر، والرُّجز فاهجر﴾ {المدّثر: 1، 5}.

2- السَّجع الطَّويل:

وهو ما كانت فيه كل واحدة من السَّجعتين مؤلَّفة من إحدى عشرة كلمة وحتَّى العشرين، ونلحظ ذلك في قوله تعالى:﴿ولئن أذقنا الإنسان منَّا رحمةً ثمَّ نزعناها منه إنَّه لَيئوسٌ كفور، ولئن أذقناه نعماء بعد ضرَّاء مسَّته لَيقولَنَّ ذهب السيئات عنِّي إنَّه لَفَرِحٌ فخور﴾ {هود: 9،10}[28]

السَّجع في نثر أبي الفضل الميكالي:

يرجع هذا الأديب الكاتب في نسبه إلى أسرة عريقة في الأدب والمجد، وكان من أشهر أعلامها، فهو الأديب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي المتوفي سنة (436هـ) وهو من الأدباء الذين التزموا السَّجع في رشاقة وعذوبة واتِّساق [29]، يقول الثَّعالبي في مقدِّمة كتابه:" ومن أراد أن يسمع سرَّ النَّظم، وسحر النَّثر، ورقية الدَّهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظَّرف، ونتيجة الفضل، فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمره عالي فكره، من ملح تمتزج بأجزاء النُّفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها..." [30].

وفي هذا ما يشير إلى تميُّز هذا الأديب وامتلاكه عنان البيان، ومن أظهر الفنون التي كان يجيدها الميكالي هو فن الإخوانيَّات، ورسائله إلى أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتَّى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق [31].

وسيتناول البحث دراسة السَّجع في نثر الميكالي من خلال ثلاثة أبواب:

الباب الأوَّل في تصديرات الكتب، ووصف النَّظم والنَّثر:

للميكالي رسائل إخوانيَّة كثيرة عبَّر فيها عن رأيه في تصديرات بعض الكتب التي ترد إليه وممَّا ينعش الرَّوح ويسرُّ الخاطر، ويُطرِب الآذان ويفتح أمام العقل والمدارك الآفاق، لطفه في الرَّد وتمكنَّه من فنون البديع إذ نلحظ في قوله مادحًا إحدى الكتب التي وصلته بقوله: " إنَّه ألقي إليَّ كتاب كريم، عنوانه غنم جسيم، وعيانه فضل عميم، فلو

(28) يُنظر البلاغة العربيَّة (البيان والبديع) : د. محمَّد هيثم غرَّة، د. منيرة محمَّد فاعور، ص، 257، 260.

(29) النَّثر الفني في القرن الرَّابع الهجري: زكي مبارك، ص، 679.

(30) فقه اللُّغة: الثَّعالبي، ص، 17.

(31) يُنظر: النَّثر الفني في القرن الرَّابع الهجري: زكي مبارك، ص، 680.

استطاع قلبي لسعى إليه إعناقًا، والتفَّ عليه عناقا" [32]، فالسَّجع في الكلمات (كريم، جسيم، عميم) سجع لطيف جاء في محلّه، شاملًا لما في هذا الكتاب من عموم الفضل عنوانه ومتنه وفوائده، ثمَّ قوله معتمدًا على السَّجع في كلمات تقف على حرفِ مغاير (إعناقا، عناقا) فإنَّ في ذلك تشويقٌ للمتلقي، وإنعاشٌ للذِّهن، وتلوين في موسيقى النَّص، كما في ذلك إشارة إلى تميُّز السَّجع عن غيره من فنون البديع، إذ يقودنا في كثير من الأحيان إلى فنون بديعيَّة أخرى كالجناس، وهذا ما وجدناه في كلمتي (إعناقا، وعناقا).

وإذا أردنا أن نأخذ بالحسبان ما لأصوات الحروف وحسن انتقائها، من أثر في إيقاع السَّجع وموسيقاه، في أذن السَّامع ونفس القارئ، إضافة لما تعكسه عن نفسيَّة الأديب، وتباين مشاعره حسب المقام الذي يكون فيه لا بدّ لنا من إشارة بسيطة إلى خصائص الحروف، وكيفيَّة تقسيمها.

فالحروف تقسم حسب أصواتها إلى:

1- صائتة وهي (أ، واو، ياء)
2- وإلى صامتة وهي جميع الحروف عدا الصَّائتة منها.

وتقسم حسب مخارجها إلى:

1- حلقيَّة (ء، ع، ح، غ، خ).
2- اللَّهويَّة (ق،ك).
3- الشَّجريَّة (ج، ش، ي).
4- الزَّلقيَّة (ل، ن، ر).
5- النَّطعيَّة (ط، د، ت).
6- الأسليَّة (ص، س، ز).
7- اللَّثويَّة (ظ، ث، ذ).
8- الشَّفويَّة (ف، ب، م، و).
9- الخيشوميَّة (نْ، نّ، مّ).
10- الأحرف الجوفيَّة (واو مضموم ما قبلها، ياء مكسور ما قبلها).

وتقسم من حيث الجهر والهمس إلى:

1- مجهورة (ب، ج، د، ذ، ر، ز، ض، ظ، ع، غ، ل، م، ن).
2- مهموسة (ت، ث، ح، خ، س، ش، ص، ط، ف، ق، ك، ه).

ومن حيث قوَّتها إلى:

1- الحروف الانفجاريَّة (أ، ب، ت، د، ط، ك، ق).
2- متوسطة (ر، ع، ل، م، ن).
3- رخوة (س، ز، ص، ش، ذ، ث، ظ، ف، ه، ح، خ).

كما وتقسم من حيث ارتباطها بالحواس إلى:

1- اللَّمسيَّة (ت، ث، ذ، د، ك، م)
2- الذَّوقيَّة (ر، ل)

(32) يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر: الثَّعالبي، 1983م، 410/4، معنى إعناقا، السير السَّريع: لسان العرب: مادة عَنَقُ، ومعنى عناقا: العنق الجيد وطوله وحسنه: لسان العرب: مادة: عَنَقَ، اقتباس من الآية رقم 29 من سورة النَّمل.

3- البصريَّة (أ، ا، ى، ب، ج، س، ش، ط، ظ، غ، ف، و).
4- السَّمعيَّة (ز، ق).
5- الشُّعوريَّة غير الحلقيَّة (ص، ض، ن).
6- الشُّعوريَّة الحلقيَّة (خ، ح، ه، ع) [33].

فعند احتيار الأديب حرفي (الميم، ق)، في نصِّه السابق كان اختيارًا موفقًا لما لهذين الحرفين من ميزات تناسب المقام الذي قيل فيه هذا المقال، فحرف الميم كما سبق وذكرنا حرف مجهور متوسّط القوَّة، وهو من الحروف اللَّمسية، موقعه في اللَّفظ يتلاءم مع الحديث عن الكتاب والفضل الذي نلتمسه من قراءته، كذلك حرف القاف في كلمتي (إعناقا، عناقا)، جاء في مكان لا يتناسب مع غيره من الحروف، فهو من الحروف المهموسة الانفجاريَّة، والهمس مما يلائم حالة العناق، كذلك كونه حرفًا انفجاريًا، ترجم لنا الحالة النَّفسيَّة للأديب الذي يسعى لنقل كل ما يعتلج في صدره من غبطة وصدق في وصف الكتاب الذي بين يديه، محاولًا في ذلك نقل مشاعره للمتلقي ومشاركته هذا الإحساس، ومدى ارتباط الأديب بنصه، إذ أفرغ فيه أشواقه وحنينه.

أمَّا في قوله هذا: " وصل كتابه فأدركت به بغية الحريص، وخلَّتني يعقوب وقد بُشِّر بالقميص" [34]، فإنَّنا نلتمس السجع في كلمتي (الحريص، القميص) وهو سجع خفيف، لطيف على الأذن، لا إطالة فيه مع الإشارة إلى الموروث الثَّقافي الدَّيني للأديب، إذ قاربت سعادته بهذا الكتاب سعادة نبينا يعقوب عليه السلام وقد بُشِّر بلقيا سيدنا يوسف عليه السَّلام، وقد وفِّق باختياره لحرف (الصَّاد) هذا الحرف المهموس الرَّخو الشُّعوري، وكأنَّ الأديب يحاول تحميل كل جزء من أجزاء اللَّفظة مشاعره وأحاسيسه، ناهيك عن إشارته لمذهبه الدِّيني إذ دعم نصَّه بثقافته الدِّينيَّة المستمدة من قصص القرآن الكريم.

وقوله في أحد الكتب: " كتابه تعلة الرَّجاء. وقوت النَّفس. وعلَّة النَّشاط، وقوَّة الأنس" [35]، إنَّ في حضور السَّجع في كلمتي (النَّفس، الأنس) أُنس وتشويق ورشاقة، فهو سجع لا إطناب فيه ولا تصنَّع، كما أنَّ لهذا التناوب، سجع يعقبه انقطاع ثمَّ سجع، يكسب النَّص حيويَّة وجماليَّة فنيَّة، وكان لحرف (السين) أثره في دعم مقال الأديب وموقفه، فالنَّفس والأنس ألفاظ مشرَّبة بالهدوء والطمأنينة، ولاسيَّما أنَّها خُتمت بحرف السين هذا الحرف المهموس الرَّخو، وفي ذلك إشارة إلى نفسيَّة الأديب الهادئة المتزنة التي لوَّحت بها كتاباته، وعمق ثقافته الأدبيَّة.

ونجده يصف كتابًا آخر بقوله: " كتابه أوصل الأنس إلى سواد القلب وصميمه، وأماط الوجد وقد ألَّح في تصميمه" [36]، يوحي سجعه هذا (صميمه، تصميمه) أنَّه سجع يراد لذاته أو لهدفه، لم يخلُ من تكلَّف وتصنَّع، فالسجعة الثانية لم تضف على المعنى المراد أيّ جديد، ففي كلا الكلمتين تعبير عن سعادة الأديب بهذا الكتاب، ولا يغب عنَّا ما يقود إليه السّجع في كثير من الأحيان إلى ألوان بديعيَّة أخرى، كالجناس الذي نجده في كلمتي (صميمه، تصميمه) وفي ذلك حلية وزينة للنَّص وبراعة فنية في استخدام هذا اللَّون البديعي. وما أروع قوله في كتاب ورده:" الحمد لله ملء القلوب والضَّمائر، وفوق وسع الحامد والشَّاكر، إذ أقبلت غمامة من ناحيتك برقها خلق كريم، وقطرها برّ عميم، فروت روض الأنس وقد اكتسى ذبولًا، وأهدى إليه من نسيم عهده صبًا وقبولًا، حتَّى انجلت عنه

(33) يُنظر خصائص الحروف العربيَّة ومعانيها: حسن عبَّاس، 1998م، ص، 47، 48، 49، 50.

(34) خصائص الحروف العربية ومعانيها: حسن عباس: ص: 410، تأثَّر المؤلِّف بقوله تعالى في الآية رقم 96من سورة يوسف: ﴿فلما أن جاءه البشيرُ ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيرًا قال ألم أقل لكم إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

(35) السَّابق: ص: 411.

(36) نفسه: ص: 411.

غبرته، وعادت إليه نضرته" [37]، فقد لوَّن في السَّجع فأبدع، وباين في انتقاء الحروف فأطرب، إذ بدأ السجع عنده في (الضَّمائر، الشَّاكر) ثمَّ تحول عنها إلى (كريم، عميم) ليعقبها بـ (ذبولًا، قبولًا) ويتمِّم ذلك بكلمتي (غبرته، نضرته) بهذه القدرة البلاغيَّة وانصياع البيان ليسلِّم العنان للسان الأديب وأنامله، تحوَّل النَّص إلى لوحة حيَّة راقصة، تنسجم فيها المعاني مع الألفاظ، فلا انقطاع ولا جفاء بينهما، بل عناق العشَّاق، وتآلف الأحباب، وشدٌّ لانتباه المتلقي وإثارة لمشاعره، فهو سجع وإن طالت عباراته، خادمٌ للمعنى لا تكلَّف فيه ولم يقصد لذاته، فلكل لفظة إشارة وغاية لم تبيُّنها سواها، كما أضفى وجود الطباق بين (غبرته، نضرته) حلاوة وطلاوة على النَّص، وما هذا إلا جماليَّة من جماليَّات السَّجع، إذ يتحفنا على الدَّوام بتآلفه مع فنون البديع الأخرى، وكان لحرف (الهاء) في آخر سجعتين، خاصيَّة أكسبت النَّص مرونة وهدوء، إذ إنَّه حرف مهموس رخو، حرف شعوري، يلتحم بشعور الأديب.

ونلتمس سحر البيان في قوله: " كتابٌ سلب الماء رقَّته، والنَّحل ريقته" [38]، إذ اجتمع السَّجع والجناس في (رقَّته، ريقته)، وهو سجع خفيف رقيق على الأذن، فيه إيجاز وبلاغة، أصاب بقوله المعنى، وأطرب بألفاظه من هزَّته عذوبة الكلمات وموسيقاها، وفي هذا الاجتماع بين هذين اللَّونين البديعيين (السجع، والجناس) رونق وروعة.

ويظهر الموروث الثَّقافي الدِّيني للأديب إذ قال: " سررت بكتابك سرور من فدي بذبحٍ عظيم، وبُشِّر بغلامٍ عليم" [39]، أشار الأديب إلى مبلغ فرحته، وعِظَمِ سروره حين ورده هذا الكتاب، فسخَّر السَّجع المفيد في لفظتي (عظيم، عليم) وهو سجع في محلَّه لا تكلَّف فيه ولا إطالة، بل إيجاز وحُسن إشارة، إلى نفسية الأديب المفعمة بالغبطة والسُّرور بهذا الكتاب، ففرحته، كفرحة سيِّدنا إسماعيل وقد افتداه ربُّه بذبحٍ عظيم، وسعادة سيِّدنا زكريا وقد بشَّره عزَّ وجل بسيِّدنا يحيى، فبهذه الكلمات القليلة أفاض علينا الميكالي معانٍ كثيرة.

الباب الثاني في الإخوانيات وما يتصل بها وذكر العهود:

إنَّ فن الإخوانيَّات من الفنون النَّثرية التي انتشرت في القرن الرَّابع الهجري، ونجدها بكثرة في نثر أبي الفضل الميكالي، هذا الأديب الأمير، عريق النَّسب، متأصِّل الثَّقافة، فقد قصده الكثير من الأدباء والكتَّاب لكلٍ منهم غاية يلتمسها، فعجَّ بلاطه بالعلوم والآداب، وكثيرًا ما كان يراسل الكثير منهم ويذكر أيَّام اجتماعاتهم وما يحفُّها من فنون الأدب، معبرًا عن ذلك برسائل إخوانيَّة مثقلة بالمشاعر ومنسوجة بفنون البلاغة، وأكثر ما نلمسه في رسائله على اختلافها بروز السَّجع هذا اللَّون البديعي الذي التزمه الأديب في أغلب كتاباته، وبالنَّظر إلى كتاباته يمكننا أن نلحظ أنَّ دراسة السَّجع لهذا الأديب تهوَّن ما ذكرناه بخصوص مشكلة البحث في صفحات سابقة وذلك لوفرة هذا الفن البديعي في كتاباته، والتي يمكن لكثير من الباحثين تناولها بالدِّراسة نظرًا لغنى أدبه به، ومن ذلك قوله: " أيَّام ظل العيش رطب، وكنف الهوى رحب، وشرب الصِّبا عذب، وما لشرق الأنس غرب" [40]، تواجد السَّجع في (رطب، رحب، عذب، غرب) سجع خفيف لطيف خادم للمعنى لم يقصد لذاته، وهو سجع قصير، وقعه في النَّفس كعذوبة ألفاظه، يتغلغل في حنايا النَّفس برشاقة وهدوء، وما زاده حلاوة كونه من السَّجع المتوازي، فتطرب له الآذان وتشتاق له الأذهان، وكان لحرف (الباء) وقعه، هذا الحرف المجهور، الانفجاري، المفعم بالقوَّة؛ قوَّة المشاعر، وصدق المودَّة، أضف إلى ذلك أنَّه حرف يترافق مع حاسة البصر، فيعاين العذوبة، وأُنس العيش في اجتماع الأحباب والخلان.

---

(37) يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر: الثَّعالبي، ص: 411.

(38) يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر، الثَّعالبي: ص: 411.

(39) المصدر نفسه: ص: 412.

(40) السَّابق: 412/4.

كما ونلحظ بلاغة الإيجاز وجماليَّة السَّجع في قوله:" أيَّامي معك بين غرَّة ولمعة، وعيد وجمعة" [41]، إذا حشد الأديب سيلًا من المعاني في اليسير من الألفاظ، وكان السَجع في (لمعة، غرَّة) سجع قصير متوازي، عفوي لا تصنَّع فيه ولا إطناب، تتزاحم فيه مشاعر الميكالي من شوق وسعادة وتعلَّل بذكرى الأيَّام الجميلة، فهي عنده كأجمل أيَّام الدَّهر، وكانت الألفاظ تنساق وراء المعاني بكلِّ لطفٍ وسلاسةٍ.

أمَّا عن قوله: "أنا أخو مودَّتك الذي لا يخشى نبوَّه وعقوقه، وسهم نصرتك الذي نحو العدى نصله، ونحوك فوقه" [42]، السجع هنا في (عقوقه، نصله، فوقه) سجع في محلِّه، وهو سجع جميل لا فظاظة فيه، لعب دورًا في شدِّ المتلقي وإثارة المشاعر، حسَنُ الوقع في النَّفس، عظيم الفائدة للعقل.

وفي قوله هذا: " وددت لو أنَّه ركب الفلك الدَّائر، وامتطى النَّجم السَّائر، وكان البرق زاملته، والبراق راحلته، والسِّماك هاديه، والخضر حاديه، والصِّبا إحدى مراكبه، والجنوب بعض جنائبه، لينقضي عمر الانتظار، ونسعد بالقرب والجوار، (وتؤمَن عواقب الأقدار) [43] " [44]، نلحظ أنَّه قصد السَّجع لذاته أو هدفه، فكانت المعاني تابعة للألفاظ، وكان السَّجع لا يخلو من إطالة لا فائدة منها، كلّ ما قاله من ألفاظ تجتمع حول معاني الشَّوق والحنين إلى اللِّقاء، ولكنَّه أبدع في التَّلوين في الكلمات، والتَّنقل بخفة في تبديل حروف السَّجعة، وهذا ما أكسب النَّص جرسًا موسيقيًا، يمتِّع النَّفس، ويداعب الرَّوح، فكان السَّجع في الكلمات (الدَّائر، السَّائر) وهو سجع متوازي، ثمَّ نجده في (زاملته، راحلته، هاديه، حاديه، مراكبه، جنائبه)، وهو سجع مطرَّف وكذلك ظهر في (الانتظار، الجوار، الأقدار) وهو أيضًا سجع مطرَّف، فكانت إطالة، لكنَّها عذبة، دمثة، تتحف الأسماع بتناوب الإيقاع الموسيقي، وتكسر توقّع السَّامع.

ونلتمس صدق المشاعر، ورقيّ التَّعبير في قوله: " كتبت هذه الأحرف وأنا أود أنَّ مدادها سواد طرفي، وبياضها جلدة بين عيني وأنفي، وحاملها دون سائر النَّاس كفّي (شوقًا إلى لقياه، وظمَأً إلى محيَّاه) " [45]، كان السَّجع في (طرفي، أنفي، كفّي) سجعًا قصيرًا متوازنًا، لطيفًا على المسامع، قريبًا من القلوب، يشير إلى مدى التصاق الأديب بصديقه، وعِظم مودَّته له، وحاول الأديب من خلال استخدامه لحرف (الياء) هذا الحرف الصَّائت، الهوائي، أن يجهر بحبه لصديقه، ويطرب صوته كل المسامع، ناهيك عن محاولة الأديب مشاركة حواسه وجوارحه، في نقل عواطفه الجياشة، وحنينه وإخلاصه لمن كُتبتْ له هذه الكلمات.

أمَّا عن قوله: " لا تفارق نفسي فيك أشواقها، حتَّى تفارق الحمائم أطواقها" [46]، جاء السّجع (أشواقها، أطواقها) عفو الخاطر، يخدم المعنى لا تكلَّف فيه، ولم يُذكر لذاته أو لزركشة النَّص بهذا الزَّخرف البديعي، بل ساق لنا مشاعر نفس الأديب ولواعجه بحلية بليغة، وهو من السَّجع القصير المتوازي.

ولو نظرنا في قوله: " لولا التَّعلل باللقاء لتصدَّعت أكباد وقلوب، وكانت بيني وبين النَّوى شؤون وخطوب" [47]، فالسَّجع في لفظتي (قلوب، خطوب) فيه إطالة، لم تضف على المعنى جديدًا، بل للتنميق والزّينة، وهو سجع

---

(41) يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر: الثَّعالبي: ص: 413.

(42) المصدر نفسه: 413، الفوق: موقع الوتر من رأس السَّهم.

(43) ما بين معكوفتين زيادة من كتاب مخزون البلاغة: لأبي الفضل الميكالي، ص: 104.

(44) المصدر نفسه: ص: 413، الزَّاملة: ما يحمل عليه من الدَّواب: لسان العرب: مادة: زَمَلَ، الرَّاحلة: ما يمتطى عليه من الدَّواب: لسان العرب: مادة: رَحَلَ، الخضر: أحد الأنبياء الذين كتب لهم الخلود، الصّبا: الرّيح الشّمالية الباردة، الجنوب: الرّيح الجنوبيَّة.

(45) يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر: ص: 414، ما بين معكوفتين زيادة من كتاب مخزون البلاغة: لأبي الفضل الميكالي، ص: 110.

(46) المصدر نفسه: 414.

(47) المصدر نفسه: ص: 414.

قصير متوازي، ولقد أضاف الجرس الصَّاخب لحرف (الباء) إيقاعًا موسيقيًا، تهتزُّ له الأفئدة، ويستحوذ على انتباه المتلقي.

الباب الثَّالث في الشُّكر والمدح والثَّناء:

ولأبي الفضل الميكالي نصوص أدبيَّة كثيرة في وجوب الشَّكر والمدح والثَّناء، وهي نصوص ثريَّة حريَّة بالدِّراسة والوقوف على جمالياتها، والنَّظر في توظيف السَّجع فيها، كما في قوله: " للنِّعم عماد من الشُّكر يحرسها أن تميل وتميد، وعقال من الثَّناء والحمد يمنعها أن تبيد وتحيد، وكثيرًا ما يسكر الشَّارب بكأس سرورها، ويعشي عينه بشعاع نورها، فيذهل عن حفظ ذمارها، ويذهب عن واجب مرتبتها واستئمارها، ويكون كمن أزعجها بعد الاستقرار، وعرضها للنفار، فلا يلبث أن يزل عن مرقاتها قدمه، ويطول على ترك موجباتها ندمه، ويحصل منها في برج منقلب، وينظر من نعيمها في أعجاز نجم مغترب" [(48)]تظهر في نظم هذه الدَّرر براعة الكاتب، وتمكنَّه من فنون البيان والبديع، وقدرته على تقليب الألفاظ، والتَّلاعب فيها، ليتحفنا بلوحة فنية حيَّة زاخرة بالإبداع، فالسَّجع في هذا النَّص لم يقتصر الأديب فيه على تقفية واحدة فتارة نلحظه في (تميد، تحيد) وأخرى في (سرورها، نورها، ذمارها، استئمارها) كما جاء في (الاستقرار، للنَّفار) وفي (قدمه، ندمه) وأخيرًا في (منقلب، مغترب)، سجع فيه إطالة وإطناب، فيه تصنَّع لإظهار المهارة الأدبيَّة فكل ما قاله الأديب يدور حول معنى واحد وهو حفظ النِّعم والدعاء بدوامها، وهو معنى مقتبس من الموروث الثَّقافي الدِّيني، كما أنَّه سجع قصير، وتراوح بين المتوازي كما في (تميد، تحيد) و(قدمه، ندمه) و(منقلب، مغترب) والسَّجع المطرَّف كما في (سرورها، نورها، ذمارها، استئمارها) و(الاستقرار، للنَّفار) وكان لهذا التَّنويع جمالية وإيقاع موسيقي رائع.

وفي قوله: " كم لك عندي من يد غضَّة ما لي بشكرها يدان، وعلى عاتقي من ثقل منَّة يعجز عن حملها الثِّقلان" [(49)]. السجع (يدان، الثِّقلان) سجع قصير مطرَّف، وهو خفيف محبَّب، لا إطالة فيه، خطَّته أنامل الأديب عفو الخاطر، بلا إجهاد ولا تمعّن، كما ظهر في معانيه اقتباس من معاني القرآن الكريم، ولوجود حرف (النون) في هذا النَّص، وظيفة جماليَّة إيقاعيَّة، أضف إلى ما حمله هذا الحرف من مشاعر الأديب المفعمة بالامتنان والإخلاص لممدوحه، فساعد هذا الحرف المجهور الانفجاري في عكس نفسيَّة الأديب الودودة، ولاسيَّما أنَّه حرف شعوري.

وإن نظرنا في قوله: " لو ملكت من مقاود البيان، ما يملك من مقالة الإحسان، لأجلبت عليه من شكري بخيل ورِجل، وجلبت إليه من فيض بناني سجلًا بعد سجل، وكلًا فقد خذلتني عبارتي مذ تناصرت عندي مواهبه، ونزفت بلاغتي منذ درَّت على سحائبه" [(50)]. نلحظ إبداع الميكالي في ذكر مواهب وخصال ممدوحه، موظفًا السَّجع خير توظيف في خدمة المعنى وكان السَّجع في (البيان، الإحسان) قصيرًا ومطرَّفًا، كما أنَّه خفيف لطيف الوقع على النَّفس، وفي (رجل، سجل) سجع عفوي يلائم المعنى ويتلاحم معه، دون أن يخلق أي انقطاع، بين اللَّفظ والمعنى، وممَّا زاد في جماليَّة النَّص الفنيَّة عدم التزام الأديب بسجعة واحدة، بل مال إلى التَّنويع، وفي هذا زيادة في التَّشويق والإثارة، ومخالفة لما يتوقعه المتلقي.

---

(48) السَّابق: ج4، ص: 415، يعشي عينه: يغضّ طرفه من شدَّة النُّور، والأعشى: الضَّعيف البصر: لسان العرب: مادة عشي، المرقاة: المنزلة والمكانة، وارتقى: صعد، لسان العرب: مادة: رقي.

(49) يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر: ص: 415.

(50) المصدر نفسه: ص: 415، ذكر محقِّق كتاب مخزون البلاغة: لأبي الفضل الميكالي، ص: 159، أنَّ المؤلف تأثَّر بقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾.

وفي دعائه هذا " لا أعدمه الله نعمة يطوق الشّكر جيدها، ويمتري بلطافة الحمد مزيدها" [51]، تجسَّدت لطافة السَّجع الرَّقيق، فكان في لفظتي (جيدها، مزيدها) سجع دمث، محبَّب إلى النَّفس، يلاطف المسامع، لا تصنَّع فيه ولا إطناب، وظهور الجناس في هذا السَّجع، أضفى على النَّص بهاءً، فاجتمع في ذلك إيقاع السَّجع إلى إيقاع الجناس وهذا ما تطرب له النَّفوس، وتستعذبه المسامع، وينطبع في الفكر، وتحفظه الذَّاكرة، وهذا ما يجسِّد بعضًا من وظائف الإيقاع.

وظهرت بلاغة الإيجاز في قوله: " ذاك فضل ملك عنانه ومقادته، فقهر أعيانه وقادته" [52]، كما ويشير هذا النَّص إلى قدرة الميكالي البلاغية، وامتلاكه ناصية الصناعة اللَّفظيّة، إذ كثيرًا ما ظهر في كتاباته تمازج العديد من الفنون البديعية في اليسير من الكلمات كاجتماع السَّجع مع الجناس والإيجاز، في كلمات واحدة، أو عبارات قليلة فالسَّجع (مقادته، قادته) سجع لطيف يقود إلى المعنى بسلاسة، وترافق هذا اللَّون البديعي مع الجناس في نفس الألفاظ، يرتقي بقيمة النَّص الأدبيَّة، ويثري عامل التَّشويق والإثارة عند المتلقي.

النتائج ومناقشتها (Results and Discussion):

- يكتسب العمل الأدبي الشِّعري منه أو النَّثري، أهميَّته الأدبيَّة حين يأخذ بفنون البلاغة (البيان، المعاني، البديع) حسب ما يناسب النَّص، ولا يقلّ أيّ فن أهميَّة عن غيره، وظهر لنا ذلك من خلال ما تناوله البحث من دراسة للسَّجع في نثر أبي الفضل الميكالي.
- للسَّجع أثر مهم في وصول النَّص الأدبي لغايته من خلال التَّفنن في انتقاء الألفاظ والحروف باعتبار خصائصها وأصواتها، فيطرب المتلقي لما يسمع والقارئ لما يقرأ، وبذلك تتغلغل الكلمات إلى أعماق أيّ منهما، فتخاطب العقل والقلب، وتتحقَّق الغاية المقصودة.
- وممَّا يثير الانتباه، بدراستنا للسَّجع في نثر أبي الفضل الميكالي، أنَّ هذا اللَّون الفني في كثير من الأحيان يقود إلى فنون بديعيَّة أخرى كالجناس، والتِّكرار، وفي هذا ما يشير إلى أهميَّة هذا الفن البديعي في النَّثر المقابل للوزن في الشِّعر.
- يمكننا أن نلحظ بما أوردناه من شواهد عن نثر هذا الأديب، تمكَّنه من الصَّنعة الكلاميَّة، وإتقانه فنَّ البيان، وبروز حالته النَّفسيَّة التي حاول نقلها للمتلقي، ليحس إحساسه، ويشاركه مشاعره، فبدا بذلك التَّرابط الرُّوحي الخفي بين الأديب ونصِّه.

الخلاصة (Conclusion):

ممَّا تقدَّم من دراسة للسَّجع في نثر أبي الفضل الميكالي، تبيَّن لنا من خلال ما طرحناه من شواهد غنيَّة بهذا اللَّون الفني البديع.

أنَّ إيقاع السَّجع ووجوده في النَّص الأدبي لا يقلُّ أهميَّة عن أيِّ فن من فنون البديع والبيان، لما له من تأثير بالغ الأهميَّة في جمهور المتلقين، ولما يتركه من ارتياح في نفوسهم، وشغف لسماع المزيد.

فهو بِحُسنِ إيقاعه يستحوذ على انتباه القارئ والسَّامع، ويُؤثِّر بهما ثمَّ يوجِّهما وفق ما يريد الأديب، ببراعة لا تخلو من طلاوة وحنكة في التَّعامل مع الألفاظ وانتقائها، فتتحقَّق الغاية المرجوَّة بسلاسة وسهولة، لأنَّ المتلقي أسلَم

(51) المصدر نفسه: ص: 416.

(52) يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر: ص: 416.

للنَّص القياد بعد أن أثار مشاعره، وحرَّك وجدانه وعلى وجه الخصوص حين يُحسن الأديب استعمال هذا الفن البديعي بذكاء، ويجعله تابعًا للمعاني، وليس قاهرًا لها، ولا يخفى عنَّا ما كان للحروف وخصائصها وجودة انتقائها من خدمة للأديب في تحقيق غايته، فتارة تكون هامسة تداعب الأفئدة، وأخرى تكون مجهورة تثير الهمم، وتشحن النُّفوس، فيصل بذلك النَّص الأدبي إلى مأربه بصورة أدبيَّة حيَّة ناطقة.

التوصيات (Recommendations):

- استعمال السَّجع عندما يحتاج المقام لذلك، وإظهار المهارة، والقدرة الأدبيَّة في اختيار الموضع الملائم لاستخدامه.
- ولابدَّ لنا من الإشارة إلى أنَّ وجود السَّجع في النَّص بكثرة، وبلا فائدة سوى الإطناب والإطالة، وإظهار المقدرة الكلاميَّة، يؤدي إلى نتيجة عكسيَّة، وتنقلب جماليَّة النَّص، إلى ملل، وشرود من قبل المتلقي، وتتحوَّل المعاني تابعًا للألفاظ، بغية التَّنميق والزَّركشة، وهذا ممَّا يُعيب النَّص الأدبي.

المصادر والمراجع (References):

- القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم.
- أساليب البديع في البلاغة العربية رؤية معاصرة، شفيع السَّيد، ط1، 2006، دار غريب، القاهرة.
- أسواق الذَّهب، أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، مطبعة الهلال، مصر، النَّشر، 1932.
- إعجاز القرآن، للقاضي أبي بكر الباقلاني، مطبوع بهامش الإتقان للسيوطي، ط4، الحلبي، 1978م.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، مكتبة الزَّهراء، القاهرة، د. ت.
- الأعلام، خير الدِّين الزّركلي الدِّمشقي، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.
- الأمالي، للقالي، بولاق، 1956م.
- الإيضاح، للقزويني، تح: محمَّد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الحسين التِّجارية، 1949م.
- البلاغة العربيَّة (البيان والبديع) د. محمَّد هيثم غرَّة، د. منيرة محمَّد فاعور، دمشق، جامعة دمشق.
- البيان والتَّبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الشَّهير بالجاحظ، تح: عبد السَّلام هارون، ط4، دار الفكر.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبي منصور عبد الملك الثَّعالبي النَّيسابوري، تح: إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر، ط1، 1994م.
- خصائص الحروف العربيَّة ومعانيها، حسن عبَّاس، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، 1998.
- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزَّيَّات، مطبعة الرِّسالة، 1945م.
- سرُّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلميَّة، ط1، 1982م.
- شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن محمَّد بن الحسين بن أبي الحديد، تح: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيَّة.
- فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغيَّة دلاليَّة، د. السَّيد خضر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2000م.
- كتاب الصِّناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعد بن يحيى بن مهران العسكري، تح: علي محمَّد البخاري، بيروت، المكتبة العصريَّة، 1993.
- لسان العرب، ابن منظور، لبنان، بيروت، دار صادر، 1997م.
- المثل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر، ضياء الدِّين بن الأثير، المكتبة العصريَّة، صيدا، بيروت، ط1، 1990م.

- مخزون البلاغة، لأبي الفضل الميكالي، تحقيق وشرح وتقديم: أ. د. عبد الرَّزاق حويزي، 2020م.
- مدخل إلى البلاغة العربيَّة (علم المعاني، علم البيان، علم البديع) يوسف أبو العدوس، دار المسيرة للنَّشر والتَّوزيع والطِّباعة، ط1، 2007م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد أبو عبد الله، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرِّسالة، 2001م.
- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفرَّاء، تح، أحمد يوسف نجاتي، علي محمَّد النَّجار، دار الكتب، 1955م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، القاهرة
- النَّثر الفني في القرن الرَّابع، زكي مبارك، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2012م.
- نفحة الرّيحانة ورشحة طلاء الحانة، محمَّد أمين بن فضل الله المحبي، علَّق عليه أحمد عناية، دار الكتب العلميَّة، لبنان، بيروت، ط1، 2005م.
- نقد النَّثر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تح: عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1980م.
- النُّكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن علي بن عيسى الرُّماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تح، د. محمَّد خلف الله أحمد ود. محمَّد زغلول سلام، ط4، دار المعارف، 1991م.
- يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر، أبي منصور الثَّعالبي النَّيسابوري، تح: مفيد محمَّد قميحة، دار الكتب العلميَّة، لبنان، بيروت،1983م.